دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

مدخل

obeikan.com

obeikan.com

ما بين منتصف صيف ١٩٩٠ (غزو العراق للكويت) وبداية ربيع ٢٠٠٣ (الغزو الأنجلو أمريكى للعراق) لم تهدأ الرياح الساخنة فوق المنطقة العربية، التى هبت عليها عواصف وضربتها الصواعق وسط أصداء هدير الرعد وسياط البرق.. وكان الجميع ـ بلا استثناء ـ يبحث عن حركة الدور المصرى، ثم راح الرهان يتزايد داخل المنطقة وخارجها على هذا الدور.. ويستوى الدليل والظن هنا!!

وهناك من اكتفى بالتنبيه والتحذير بأن هذا الدور قد تراجع أو تم تعطيله، وأن ذلك كله والنتائج التى ترتبت عليه، لم يؤد فقط إلى ترهل النظام العربى والذى لم يعد قادرا على أن يصلب عوده ويقف، ولكن قد ساهم هذا الغياب والتراجع فى تسهيل اختراق الأمن القومى العربى، وأن تجرى عمليات الإحلال والتبديل، وأن تطرح أفكارا لإعادة ترتيب الأوضاع فى المنطقة، وبعض هذه الأفكار وجدت طريقها للتنفيذ على أرض الواقع ولو بالسطو المسلح!!

ثم صال وجال كثيرون يدفعون أمامهم بمقولة أن دور مصر فقد أهميته فى مناخ عاصف.. أو أن هذا الدور خف تأثيره بمقدار ما حفت قوته!!

ولأن الصراع على الشرق الأوسط وفيه مازال مستمرا، فإن الحديث عن دور مصر مازال مستمرا أيضا..

والسؤال: هل تراجع دور مصر؟! أو هل فقد أهميته؟! أو هل يتم تعطيله؟!

فى حقيقة الأمر فإن هذا السؤال ـ وبأكثر من صيغة ـ كان يلح على

الكثيرين وقبل صيف ١٩٩٠ وما بعد الاحتلال الأمريكى للعراق، ومع كل ممارسات البطش والعدوان وصب النيران الإسرائيلية على الشعب الفلسطينى داخل الأراضى المحتلة.. ولكن السؤال ـ وفى جانب كبير منه ـ كان قاصرا على الجانب السياسى فى حركة الدور المصرى.. اقتصر على حركة الجهد السياسى والدبلوماسى.. وأى جهد أو تحرك سياسى هو رهن تقدير المواقف، وحسابات علاقات وموازين قوى إقليمية ودولية، وقبل كل هذا فإنه قد يعكس ـ غالبا ـ تباينا وتضاربا فى الرؤى حين يكون مجال الحركة أمامه محصورا بين الحيرة والارتباك، وفى هذه الحالة فإن بعض دواعى الخطأ فى المواقف، أو قصور فى الفكر والفعل السياسى يمكن تصوره!!

وأسوأ ما يمكن تصوره من حالة القصور فى الفكر والفعل السياسى، حين تتحكم "الشخصنة" فى السياسة الخارجية.. شخصنة السياسية الخارجية لمصر، أى شخص واحد يحدد اتجاهاتها وفق ما يريد!! وعلى سبيل امثال، كانت العلاقات المصرية ـ الإيرانية، نموذجا لتلك الحالة، ويقول السيد على لاريجانى فى هذا الصدد، أنه حين كان مستشارا للأمن القومى، زار القاهرة، والتقى الرئيس السابق مبارك، ومدير المخابرات المصرية اللواء عمر سليمان، وأن مبارك قال له إنه يريد شيئا واحدا من إيران، هو أن يسلموا لمصر شخصا اشترك فى محاولة اغتياله فى أديس أبابا ١٩٩٥، وإذا ما تم ذلك فستعود العلاقات طبعية بين القاهرة وطهران.. ويضيف لاريجانى ـ رئيس مجلس الشورى الإيرانى ـ أنه عاد بالاسم إلى طهران، وأن الأجهزة الأمنية ظلت طوال شهرين تبحث عنه، ولم تجد له أثرا فى إيران.. وبالطبع ظلت العلاقات بين

البلدين متوترة!!

وقد يرى البعض أن التحرك السياسى لإدارة الأزمات يمثل أحد أبرز أدوات وآليات حركة الدور ـ أى دور ـ وهذا صحيح.. ولكنه فى نفس الوقت لا يمثل المعيار الوحيد للحكم على دور دولة ما.. هناك بالضرورة جوانب كثيرة فى دائرة الدور بمعناه الأشمل والأوسع.. وكان دور مصر ـ مثلا ـ فى التنوير والتحديث داخل أمتها العربية، فاعلا ومؤثرا وخالقا.. وكانت مصر مجمع كل المطالبين بالحرية والباحثين عن المعرفة والعلم، وقد شكلت الثقافة المصرية ـ من إبداعات الأدباء والشعراء والمفكرين والفنانين ـ وجدان الشعوب العربية، أو على الأقل فتحت أمامها آفاقا للمعرفة.. وكان هذا جانبا من دور مصر.. وحتى لو أن ما كان، لم يعد كما كان، وطوال السنوات الأخيرة والتى امتدت ٣٥ عاما!!

لا ينكر أحد ـ ولا يحق له أن ينكر ـ أن هناك دورات صعود وهبوط للدور.. أى دور.. وهو يرتبط بالضرورة بدورة التاريخ بين قرون نضج وحضارة، وقرون انهيار وتخلف، ولكن هذا لا يعنى أن الدور فى حالة غياب كامل، وهذا لا يحدث إلا فى حالة غياب الدولة ـ أى دولة ـ بأكملها عن الوجود!! ويستداعى إلى فكرى تشبيه طريف ـ ذات معنى وذات مغزى ـ لأحد المفكرين.. يقول: حين تكون صحة مصر النفسية ليست على ما يرام فإن حركة دور مصر تصاب بالخلل.. وقد لفت هذا القول نظر كثيرين وهم يرون أن المناخ العام فى مصر جعلها لا تنتبه لوجودها ـ وهو من الأصول المهمة للغاية فى منظومة العلاقات الدولية ـ ولا تنتبه لدورها ـ وهو أشبه بالقدر المكتوب عليها ـ وأصبحت مشفقة

على نفسها من مسئوليات هـذا الدور!!و هناك أيضا مؤثرات سلبية تثقل على حركة الدور المصرى فى محيطه العربى، ولكن لا تعطله، ومنها أن الوطن العربى فوق براكين مكتومـة لا يوحى ظاهرها بما هو محبوس فى باطنها، وأن الأمة أصبحت منقسمـة بالفكر والفعل على نفسها وفى ظل أجواء مزدحمة بالشـك، ومشحونة أحيانا كثيرة بنيـران التوتر، ومعرضة طول الوقت للمفاجآت!!

وما يعنـينى هنا ليست الأجـواء التى أثقلت على حـركة الدور، ولا المناخ العـام الذى لم يتنـبه لأهميـة هذا الدور ومسئـولياته.. ولـكن ما يعنينى هو الخلط الشديد من الذين يتـحدثون عن دور مصر برؤية قاصرة للتاريخ، ويدفـعون بنظرية أن للدور "قانون" يحدث أثـره كلما توافرت شروطـه!؟ إذن.. هم يتحـدثون عن أدوار مرحلـية أو موسـمية تـرتبط بحركة الأحداث ومتغيراتهـا، وتخضع بالضرورة لتقلبات الزمن!! دور ـ مثلا ـ له هدف تـفرضه تطلعات ومطامع الـدول.. ودور ـ مثلا ـ أقرب لوظيفة أو مـهمة يضطلع بها النـظام الحاكم خلال حقبة زمنـية مع توافر الشروط والأجواء المناسبة، ثم حيـن تختلف الظروف والأجواء مع حركة الزمـن فإن الـعمـر الافـتراضـى لهذا الـدور ينتـهى كـمـا انتـهى دور الإمبراطوريات العظمى حين لملمت أطرافها، وسحبت قواعدها الخارجية ولعقت جراحها، وانحشرت قواها المترهلة داخل حدودها.. وهذه الرؤية تجاهـلت تماما الاقـتراب من مـفهوم الـدور.. "ماهية الـدور" وحدوده ومحيط حركته..